مَعالم الطبيعة
في شعر الرَّقَعْمَق (ت٣٩٩هـ)

Natural features
in the poetry of Al- Raq'amq (d. 399 AH)

م.د. علي خالد فاضل
جامعة المثنى كلية التربية الأساسية

Asst. Dr. Ali Khaled Fadel
Al-Muthanna University / College of Basic
ali.khaled@mu.edu.iq

الملخّص

تروم هذه الدراسة الكشف عن وضاءة معالم الطبيعة - الساكن والمتحرك- في شعر الرَّقَعْمَق التي أُغفلت من قبيل مُعظم الكتابات الأدبية الأكاديمية التي ركزت على أساس كون تجربة الشاعر تسودها نمط الحماقة والبذاءة والخسّة، فكان من الطبيعي أنْ نجد أكثر هؤلاء –الدارسين- يسلطون الضوء على أسلوبه الساخر ولوازمه الفكاهية، غير مكترثين أو ناظرين بإمعان ودقة بأنَّ شعره قد ضمّ في أفيائه نوادر قيمة أخرى يستحق الوقوف في حيثياتها والتأمل فيها، ومنها صورة الطبيعة وما يختلجها من موجوداتٍ حيّة وجامدة التي تعكز عليها الرَّقَعْمَق في تغذية تجربته الشعريّة, وفي الوقت نفسه كاشفًا للمتلقّي عن أهمية هذا الفنان/ الشاعر وإبداعه في تسخير كلّ ما تيسر لهُ من عوامل الطبيعة وصهرها لخدمة مكوّنه الفني الشعريّ.

وعلى هذا الأساس يمكن أنْ نُلِمَ بحقيقة مهمّة بأنَّ مجيء الطبيعة بمختلف عناصرها لم يتأتَ بمحضِ صدفة، وإنَّما نجد الرَّقَعْمَق قد هيأ إلى

نفسه فرصة فتح أفق جديدة لاستقبال تفاصيل ما يختلج عوالم هذه الموجودات- الطبيعة- وصورها التي تتيح له رسم ما يريد تحقيقه وتثبيته في ميدانهِ الكتابي.

الكلمات المفتاحية: الساكن، النبات، المتحرك، الحيوان، الصناعي.

Abstract

This study seeks to reveal the vivid manifestations of nature—both its static and dynamic elements—in the poetry of al-Raqa'maq, a dimension that has largely been overlooked by most academic literary studies. The prevailing critical perspective has often associated the poetic style of this poet with foolishness, vulgarity, and baseness. Consequently, the overwhelming majority of scholars have focused primarily on his satirical style and humorous expressions, paying little attention and offering limited critical scrutiny to other valuable aspects embedded within his poetry.

However, a closer examination reveals that his poetic works encompass noteworthy elements worthy of analysis and reflection, particularly the imagery of nature and its various living and inanimate components. From these elements, al-Raqa'maq derived the substance of his experiences and employed them to articulate and document the subtle details of life's situations in general.

Accordingly, it can be understood that the presence of nature in its diverse forms within his poetry was not the result of arbitrary effort. Rather, al-Raqa'maq consciously created an opportunity to open new horizons for exploring the intricate worlds of nature and its imagery, enabling him to depict and firmly establish in the mind of the recipient the meanings he intended to convey.

Keywords: Static elements, plants, dynamic elements, animals, artificial.

المقدّمة

شكّلت الطبيعة ولوازمها الحيّة والجامدة غاية ووسيلة مهمّة في نفس الإنسان/ الشاعر؛ إذ إنَّ علاقة هذا الأخير بالمحيط البيئي هي في الأصل علاقة تأثر وتأثير تام، فالطبيعة لها وصمة كبيرة في تكوين شخصية الشاعر عاطفيًا وبدنيًا، فهو بكلِّ بساطةٍ يستمد أفكاره وأخيلته من الموجودات الواقعية التي يراها ويحسّ بها، ممّا انعكس ذلك على فنه الشعريّ. واقتضت المادة العلمية – هنا- أنْ تكون الدراسة في ثلاثة محاور رئيسة سُبقت بتمهيدٍ وأردفت بخاتمةٍ ضمّت في طيّاتها أهمّ النتائج التي توصل إليه هذا البحث، متبوعة بقائمة المصادر والمراجع، فكان مهادها المتضمن (لمحة عن الرّقعمق) الذي أجزت فيه الحديث عن حياته وما لازمه من أمورٍ أخرى، وجاء المحور الأول الموسوم بـ(الساكن)؛ إذ حاولت الدراسة هنا الكشف عن الطبيعة الساكنة ولوازمها من الأشياء

المادية- النباتات والأنواء- التي تناولها الرّقعمق في شعره، وقد تضمن المحور الثاني المُسمّى بـ (المتحرك) الذي ارتبط بالجانب الطبيعي للكائنات المتحركة- حيوانات الحمل والركوب والطّير- وتأثيرها على تجربة الشاعر الشعريّة، وبعد ذلك تناول البحث في المحور الثالث (الصناعي) حيث تجلّت أنماطه بأدوات القتال الحربية والخمرة وتأثيرهما على جسدية الإنسان/الشاعر.

عوّلت الدراسة على المنهج التحليلي الوصفي في إبراز دور العناصر الطبيعية – الساكنة والمتحركة- وأثرها الكبير في تكوين تجربة الشاعر الشاعرية.

التمهيد: لمحة عن الرَّقَعْمَقِ

هو أبو حامد؛ أحمد بن محمد الأنطاكي، المعروف بـ(أبي الرّقعمق)، الذي يرجع منشأ أصله إلى أنطاكية الواقعة في الحدود الفاصلة بين تركيا والشام[1]؛ إذ إنَّ نشأته الأولى لم تكن واضحة ودقيقة، فلم تذكر لنا صحائف الكتب- قديمًا وحديثًا- ما تؤول إليه حياته البدائية بشكلٍ وافٍ، وفي الوقت نفسه لا نجد مسوغًا أو إجابة شافية عن سبب إطلاق هذا اللقب عليه، وربّما أنَّ اتّخاذه لأسلوب الحماقة والعبث في الشعر قد آل إلى إلصاق هذا المسمّى عليه[2]، الذي خالف فيه نمط أغلب الشعراء في عصره, وربّما أنَّ هذا النسق هو واقعًا كان بوابته في سطوع نجمه الشعري، ولاسيّما حين مكث في مصر – أيام حكم الفاطميين- حيث عاش حياة العربدة والمجون وممارسة البذاءة والحماقة بمختلفِ مشاربها، ممّا أنعكس ذلك على مفردات شعره التي اصطبغت بألوان البلاهة والفكاهة وما يندرج تحت شاكلتها، حتى سميّ آنذاك برأس الحماقة في مصر[3]؛ إذ إنَّ أغلب أشعاره نجدها يستهين بنفسه ويحطّ من مكانته نفسيًا واجتماعيًا، لغرض كسب ودّ الآخرين- الحكام والرؤساء الفاطميين- وعطاهم ماديًا ومعنويًا، فقد ظل شاعرنا يجول في يربوع مصر وأرضها الفسيحة حتى أدركتهُ المنيّة سنة (٣٩٩هـ)[4].

المحور الأول: الساكن

آن للدراسة في هذا المحور الوقوف وتسليط الضوء على محتويات الطبيعة الساكنة ولوازمها البيئية من نحو النباتات والنوء وغيرهما، وبيان عمق أثرها التي رامها الرقعمق من ذكرها وتضمينها في أشعاره؛ إذ إنَّهُ وجد في هذه الرواكد الطبيعية – وفروعها- وسيلة مهمّة وغاية مرجوة لغرض إكمال تجربته المراد تحقيقها في الواقع المجتمعي، وهي على وفق الآتي:

أولًا: النباتات (الأزهار والأشجار)

في هذه الفقرة تحاول الدراسة إماطة اللّثام عن النباتات والأزهار التي شكّلت في شعر الرّقعمق متنفسًا نفسيًا وبدنيًا في الآن معًا؛ إذ رسم لنا الشاعر الحدائق وما فيها من حركاتِ الأغصان وأزهارها الجميلة، وفي الوقت نفسه لا نجدهُ يفرد

هـذه النباتـات بـكلِّ تفاصيلهـا وألوانهـا في أشـعارٍ خاصّـة، وإنَّمـا نلمحهـا مبثوثـة في ثنيـاتِ أغراضـه الشـعريّة المختلفـة، وربّمـا أنَّ اتّخـاذ الشـاعر مـن هـذه النباتـات وصنوفهـا عامّـة، كان لغـرض إكـمال تجربتـه المـراد إيصالهـا أو تحقيقهـا في ذهـن المتلقّـي مـن نحـو قولـه[٥]:]المجتـث[

أَعَارَ حُســـن التثنّي
تَثَنّي الأغصَـــانِ
إذا تَبَسّمَ تـــــــهيًا
يُفتِّرُ عَنْ أقحُوانِ
فالرِّيحُ لِلمِسكِ مِنها
واللّونُ لـلزَّعفَرانِ

هـذهِ الأبيـاتُ مـنْ قصيـدةٍ - تبلـغ خمـس عـشرة بيـت- كتبهـا الشـاعر للآخر/الغـلام التـي يدعـو فيهـا هـذا الأخـير لحانـة الخمـر، والجلـوس معـه؛ إذ تسـتأنس النفـس وتسـتريح في افيائـه، عارضًـا انطـواء جسـد الغـلام ورشـاقته بمثـل مـا يثنـى غصـن النبـات ، وفي الوقـت نفسـه يصـف ابتسـامته ومـا فيهـا مـن أسـنانٍ جميلـة, بأنَّهـا أجمـل وأكـثر جاذبيـة مـن زهـرة (الأقحـوان) - وهـي جنـس مـن الزهور التـي تنـدرج ضمن الفصيلـة المركّبـة؛ إذ تتميـز بشـكلّها الوضـاء, فضـلًا عـن كونهـا مُفلّجـة الأوراق ودقيقهـا تكـون شـبيهة بالأسـنان[٦]- التـي ينبعـث منهـا (المسـك)، ولونهـا الجميـل (الأصفـر) الـذي يشـبّه لـون الزعفـران، وربّمـا أراد الشـاعر بـأنَّ الريـح التـي تخـرج مـن فـمِ هـذا الغـلام هـي شـبيهة برائحـة (المسـك)، وقـد يكـون اقحـام - اللّـون والزعفـران- لغـرض إكـمال انسـيابية الـوزن، وفي سـياقٍ آخـر اتّخـذ الشـاعر مـن الـورد والأغصـان وسـيلة يصـف عـن طريقهـا جسـدية الفتـاة ومـا يختلـج ظاهرهـا في مشـهدٍ غـزلي؛ إذ يقـول[٧]:] الوافـر[

ويَومُكَ إذ تَطوفُ بِهِ فَتَاةٌ
علـــى الخَدّينِ منها وَردتان
مُهَفْهَفَةُ الـــــقوامِ إذا تَثَنّتْ
تَثَنَّتْ كـــالقَضيبِ الخَيْزُرانِ

يكشـف الرقعمـق في هذيـن البيتـين تشـبيهًا يكتنفـه نسـق الرقـة والحـبّ عـلى السـواء، ابتـداءً حينـما مـزج بـين جـمال الفتـاة (خديهـا) بمناظـر الطبيعـة الوضاء (الـورد) في مشـهدٍ خـلاب ينمـي عن عشـقه لفتاتـهِ التي هـام بهـا, وفي الوقـت نفسـه تـراه يسـتكمل جمالهـا وإشراقتهـا البهيّـة, ولاسـيّما في عرضـه الجـزء السـفلي لسـاق الحبيبـة الـذي امـاز بطولـه ورشـاقته كأَنَّـهُ الخيـزران- وهـي مـن الأعشـاب الضخمـة التـي تتميـز بطـولِ سـاقها وسـهولة التوائهـا[٨]- بمرونتـه وخفّتـه، وبهـذا الأسـلوب الرقـراق حـاكى الشـاعر محبوبته/الفتـاة غايـة لاسـتمالة شـعورها وإحساسـيها نحـوه. وعـلى هـذا الأسـاس يمكـن القـول بـأنَّ معظـم النباتـات ومـا يختلجهـا مـن صنـوف وأشـكال مختلفـة قـد جـاءت متداخلـة مـع غيرهـا مـن الأغـراض الشـعريّة الأخـرى؛ إذ لم نجـد في حيثيـات أشـعار الرقعمـق مـا ينـوء عـن انفـراد ذكـر

النباتـات بشـكلٍ خـاص في أشـعاره.

ثانيًا: الأنواء وظواهر الطبيعة الأخرى

تقـف هـذه الفقـرة بأثـر بيـان مفهـوم (النـوء) وهـو النجـم الـذي يصحبـه الغيـث، والجمـع أنـواء[٩]، التـي ستشـعرها الرّقعمـق فصوّرهـا مـن الواقـع الـذي يعيشـه فيـه، متّخـذًا منهـا أداة تكشـف عـمّا يختلـج مشـاعره وأحاسيسـه اتجـاه الطبيعيـة التـي تمثّلـت باللّيـل والنّهـار، والشـمس والقمـر، والغيـث والبحـر وغيرهـا، وفي الوقـت نفسـه تعـدّ الأنـواء ومـا فيهـا مـن مسـميات مختلفـة مـن العلـوم المهمّـة التـي أتقنهـا العـرب - قديمًـا- في زمـنٍ كانـوا يضيفـون سـائر هـذه الظواهـر مـن نحـو المطـر، والريـح، والحـر، والـبرد إلى السـاقط منهـا[١٠]؛ إذ لم يكـن بالإمـكان معرفـة أنـواء النجـوم والظواهـر الأخـرى مـا لم يتعـرّف عـلى بـروج (الشـمس والقمـر) وغيرهـا[١١]، ومصـداق ذلـك مـا جـاء في قـول الرقعمـق[١٢]:]الهـزج[

ألا يـــــا مُنتهى الجودِ
ويا ذا المَجدِ والفخرِ
ويـــــا ابنَ السّادةِ الغُرِّ
ويا ابنَ الأنجُمِ الزَّهرِ
ويا أبهى مِنَ الشّمسِ
ضِياءً ومـــــنَ البَدرِ

يظهـر في النـصّ وكأنَّ الرقعمـق قـد اسـتمد مـن ظواهـر الطبيعـة السـماوية التـي تمثّلت بـ (النجـم، والشـمس، والبدر) مـادة أراد عن طريقهـا أنْ يبـيّن مـا يتحـلّى بـهِ ممدوحـه مـن خصـالٍ عـدّة مـن نحـو كرمـه وعطائـه غـير منقطـع النظـير، فهـو صاحـب البطولـة والمجـد والعـزّة، وليـس هـذا فحسـب، وإنَّمـا نجـدهُ يعـرض أصالـة مـا يتمتّـع بـهِ الآخـر/ الممـدوح مـن حيـث نسـبه وعلـو مكانتهـم في المجتمـع، وفي الوقـت نفسـه أنَّ هـذه المبالغـة التـي حشـدتها تجربـة الرقعمـق، ولاسـيّما مـا جـاء بـهِ في قسـمات البيـت الثالـث الـذي صـور فيـه إشراقـة الممـدوح بأنَّهـا أكـثر وضـاءة مـن الشـمس والقمـر، مـا هـي إلاَّ لغـرض كسـب ودّ الممـدوح وعطائـه والتقـرّب إليـه ماديًـا ومعنويًـا، وفي موضـعٍ آخـر نجـد الشـاعر يعـوّل في رسـمِ تجربتـه الشـعريّة عـلى الأجـرام السـماوية والظواهـر الطبيعيـة الأخـرى؛ إذ يقـول[١٣]:]البسـيط[

لكِنْ مَـــــدَحتُ حَميدًا فامتَدَحتُ فتىً
وَقفًا علـــــى مِنّةٍ تُسدى وعارِفَةِ
رَأيتُهُ فَرَأيتُ البَدرَ فـــي أُفُقٍ
والشّمسَ طالِعَةً مِنْ كُلّ شَارِقَةِ
والبَحْرَ مُعترِضًـــا والغيثَ مُنبَجِسًا
بِرائحـــٍ لمرجّيهِ وغَـــادِيةِ
مُستحسنُ اللّفظِ في القِرطاسِ موجزهُ
مُوفّقُ الرأيِ مَحمـــودُ المُخاطبةِ

نلحـظ في النـصّ وكأنَّ الرقعمـق يضفـي شـيئًا مـن الوضـاءة والجـمال عـلى لوحتـه المدحيـة، ولاسـيّما حـين اسـتند ابتـداءً عـلى (الشـمس والقمـر) في إبـراز وسـامة الآخر/الممـدوح ولمعانـه الـذي يـوازي ضـوء الجرمـين - آنفـي الذكـر- وفي الوقـت نفسـه نلمـح حركـة النـوء (البحـر والغيـث) التـي أعطـت الحيويـة والنشـاط في رسـم دقائـق

تجربتـه وتثبيتهـا في نفـس المتلقّـي، وعـلى هـذا الأسـاس أنَّ لجـوء الشـاعر إلى الظواهـر الطبيعيـة ولوازمهـا المختلفـة كان لغـرض بيـان مـا يتمتّـع بـهِ ممدوحـه مـن إشراقةٍ وحِكمـةٍ ودهـاء في تدبـر مـا يقـع عليـه مـن تحديـات الواقـع المجتمعـي ومواقفـه المتنوعـة عامّـة. ومـن هـذا المنطلـق لا نجـد الرّقعمـق في أشـعاره يفـرد الظواهـر الطبيعية/الأجـرام السـماوية ومـا فيهـا في لوحـاتٍ خاصّـة، وإنَّمـا نجدهـا متداخلـة مـع غـرض المـدح حـصرًا، مـن دون مجيئهـا - الظواهـر بمختلـف لوازمهـا- في مكـون سـائر الأغـراض الشـعريّة الأخـرى.

المحور الثاني: المتحرك.

تحـاول الدراسـة في يربـوع هـذا المحـور الكشـف عـن الكائنـات الطبيعيـة المتحركـة التـي تلقفهـا الرّقعمـق مـن الواقـع المحيـط بـهِ؛ إذ إنَّ هـذه الحيوانـات بصنوفهـا المختلفـة قـد سـاعدت الشـاعر كثـيرًا في تثبيـت تجربتـه المـراد تحقيقهـا في ذهـن المتلقّـي، وهـي عـلى وفـق الآتي:

أولًا: حيوانات الحمل والركـوب والدواب

مـمّا لا شـكّ فيـه بـأنَّ أكـثر مظاهـر الطبيعية المتحركـة - الحيوانـات والحـشرات- التـي أخـذت حيـزًا كبـيرًا في نفـس الإنسـان العـربي هـما الناقـة والفـرس، لما فيهـما مـن صفـاتٍ مميـزة قـد تفـردا بهـا عـن سـائر الحيوانـات الأخـرى مـن حيـث تذليـل الصعوبـات عـلى الإنسـان، فضـلًا عـن كونهـما رمـز الصـبر والقـوّة وغـير ذلـك، وبهـذا خلدّهـا الإنسـان العـربي في أشـعاره[١٤]، وفي الوقـت نفسـه أخـذت صـورة الحيوانـات الأخـرى التـي تمثّلـت بـ(الحمـير والبقـر) تبـزخ بشـكلٍ لافـت في حيـاة التمـدّن العباسي, وعدّها أداة ووسـيلة مهمّـة مـن وسـائل العيـش والتنقـل اليومـي، أو ربّمـا أنَّ مجـيء هـذا النـوع مـن الحيوانـات كان لغـرض إضفـاء السـخرية والتهكـم عـلى النـصّ الشـعريّ, مـن نحـو مـا جـاء في قـول الرقعمـق[١٥]:]مجـزوء الكامـل[

كَتَبَ الحَصيرُ إلى السَّريرِ
إنَّ الفصـــيلَ ابنُ البعيرِ
فَلِمثلهـــا طَرَبَ الأميرُ
إلى طباهِجةٍ بـــقيرِ
فلأ منَعنَّ حمـــارتِي
سَنتينِ مـــن عَلفِ الشَّعيرِ

يكشـف هـذا النـصّ عـن ملامـح الغبـاوة والحمـق التـي أخـذت نصيبًـا كبـيرًا في نفـس الشـاعر، ولاسـيّما حـين اسـتعانة بالمتحـركات الحيّـة (البعـير، والبقـر، والحـمار)، لغـرض إكـمال تجربتـه المـراد تحقيقهـا في نفـس الممـدوح/ الأمـير، حتـى يشـعر هـذا الأخـير بالسـعادة والفـرح الدائـم، وفي موضـعٍ آخـر راح الرقعمـق يذكـر حماقتـه وسـوء أفعالـه؛ إذ يقـول[١٦]:]المجتـث[

يَرْيَرْ ويَرْيَرْ يـــاري
مِثلي بلا أزراري
وأنتَ تعلمُ أنِّـــي
شيخٌ خليعُ العذارِ
أدنَى مجوني أنِّـــي
أصيحُ مثل الحِمارِ

هـذه القصيـدة في مناسـبة مدح العزيـز بالله الفاطمـي التـي بلغـت سـبعة عـشر بيتًـا، حيـث افتتحهـا الشـاعر بأسـلوب السـخرية والحماقـة؛ إذ ينسـب إلى نفسـه الصفـات البذيئـة عامّـة مـن نحـو (يريـر، بـلا أزراري، والخليـع) وغيرهـا، لغـرض إضحـاك الآخـر/ العزيـز وجعلـه في ارتيـاحٍ وانبسـاط، ولاسـيّما حـين جعـل الرقعمـق صوتـه يشـبه صـوت إحـدى الكائنـات – الحيوانـات- المتحركـة (الحـمار). وعـلى هـذا الأسـاس جـاءت صورة الحيـوان المتمثّـل بـ(الركـب والـدواب) في حيثيـات غـرض المديـح حـصرًا، بينـما غـاب أو نعـدم حضـور سـائر الحيوانـات الأخـرى أمثـال الناقـة والفـرس في أشـعاره عامّـة.

ثانيًا: الطِّيور

لا يخفـى بـأنَّ صـورة الطّـير بمختلـف أنواعـه قـد شـكّل في مخيلـة أغلـب الشـعراء قديمًـا وحديثًـا هاجسًـا حيويًـا، ومثـيرًا طبيعيًـا كبيرًا في نفوسـهم، منتزعـين منـه صـورًا وتشـبيهات عـدّة، لغـرض التعبـير عـن تجاربهـم الواقعية الحيّـة؛ إذ أثـارت أصـوات الطّـيور وأشـكالها المختلفـة عواطفهـم ومشـاعرهم وأخيلتهـم، فـراح يصفونهـا بأنَّهـا رمـز السـيطرة، والحنين والعطـف، والتشـاؤم وغـير ذلـك[١٧]، ومـن هـذا المنطلـق اتّخـذ الرقعمـق مـن الطّـير وسـيلة مهمّـة تكشـف عـن أثـر تجربتـه ومـا يـؤول إليـه في واقـع الأمـر, مـن نحـو قولـه[١٨]:]المجتـث[

فَـــبالصّفيرِ أُنادي
كما يُناغي القُماري
وللدّيوكِ أحاكـــي
بـــبِسطةٍ واقتدارِ
إذا صَرَخنَ فَقُوقـــو
فقوٍّ بـــالأسحارِ

يلـحّ الشـاعر عـلى إظهـار الحماقـة والبـذاءة في مكـون هـذا النـصّ، ولاسـيّما عـن طريـق الاسـتعانة ببعـض أنـواع الطيـور التـي تمثّلـت بـ(القـماري، والديك)، مـن أجل بـثّ الراحة والمـرح في نفـس الممـدوح/ الحاضريـن، وذلـك بسـبب مـا ينتـج مـن أصـوات هـذه الحيوانـات ونغمهـا المختلـف الـذي يـؤول في أغلـب الأحيـان إلى الضحـك والفكاهـة، ومـن تمظهـرات صـور الطّـير الأخـرى مـا جـاء في قولـه[١٩]:]البسـيط[

خُذْ في هناتِكَ مِمّا قَدْ عُرِفتَ بِـــهِ
ممّا بـــــهِ أنتَ مَعروفٌ ومَشهورُ
واحكِ العصافيرَ صي صي صي صي صصصي
إذا تَجاوبنَ في الصُّبحِ العَصافيرُ

إنَّ مناسـبة هـذا النـصّ المدحـي الـذي أنشـده الرقعمـق في مقـام الخليفـة الفاطمـي – العزيـز بالله- الـذي بلـغ عـدد أبياتـه سـتة عـشر بيتًـا، يذكـر فيهـا محاسـن الخليفـة، وصفاتـه الحميـدة، وعلـو مكانتـه في المجتمـع، وفي الوقـت نفسـه أنَّ ترجيـح الشـاعر إلى الاسـتعانة بهـذا الحيوان(العصفـور) وترديـد أجـزاء مقاطعـه الصوتيـة بهـذا الأسـلوب الشـكلي الخـارج في حقيقـة الأمـر عـن المألـوف الشـعري في الأعمّ

الأغلب, ما هو إلاَّ لغرض ترويج بضاعته في خلقِ نغمة فكاهية ساخرة يزيح بها الغم والكرب عن الآخر/ الممدوح, حتى يشعر هذا الأخير بالسعادة والمرح. وعلى هذا الأساس ورد ذكر الطّير الذي تمثّل بـ(القماري، والديك، والعصفور) في موضع المدح حصرًا، من دون أنْ نجد حضورًا لسائر الطيور الأخرى في ديوانه الشعريّ.

ثالثًا: الحيوانات والحشرات

في هذه الفقرة تكشف الدراسة بأنَّ الرّقعمق لم يغفل في شعره عن تناول عدد من أنواع الحيوانات أمثال التيس، والكلاب وغيرهما، وأقل من ذلك الحشرات- البراغيث- ، التي ارتبطت صوّرها بما تحمله هذه الكائنات الحيّة من دلالاتٍ سلبية أكثر ممّا هي إيجابية التي استعملها الشاعر من أجل تثبيت تجربته المراد تحقيقها, من نحو قوله[٢٠]:

]مجزوء الرجز[

وقَوقَقِي وقوقَقِي
هَدِيّةٌ في طبقِ
أما تَرونَ بينكم
تَيسًا طويلَ العُنُقِ

يبدو أنَّ نفس الرّقعمق مضطربة وهشّة لا تكاد أنْ تستقرّ أبدًا، ولاسيّما ما كشف عنه في هذين البيتين؛ إذ شبّه نفسه بالحيوان (التيس) الذي امتاز بطول عنقه، لغرض ترويح نفس السامعين واضحاكهم، وكسب ودّهم ورضاهم، وفي سياقٍ آخر راح الشاعر يذكر إحدى الكائنات الحيّة في صورة يسودها عامل الحماقة والسخرية؛ إذ يقول[٢١]:]مجزوء الرمل[

ولما طالَ انتزاحي
عن بلادي واغترابي
لعنةُ اللهِ علَيــــهِ
وبراغيــثُ الكِلابِ

على الرغم من أثر ابتعاد الرقعمق عن الأهل والديار الذي صرّح بهِ ابتداءً في قسمات البيت الشعريّ الأول، إلاَّ أنَّ حماقة أفعاله وتصرفاته، وعدم ثقته بنفسه، آلت إلى جعله يشتم ويحطّ من مكانته شعوريًا وجسديًا في الآن معًا، وذلك حين لجأ إلى الاستعانة بـ (البراغيث)- وهي حشرات طفيلية خارجية صغيرة الحجم تتغذى على امتصاص دم الإنسان والحيوان على السواء[٢٢]- و(الكلاب) فكلاهما يضع الشخص/الشاعر في محطّ الانتقاص والبذاءة، وإزالة كلّ معالم أو سمات الشخص الحميدة، ونسترسل مع الرقعمق في صورة أخرى قد تضمنت بعض أنواع الحيوانات المختلفة؛ إذ يقول[٢٣]:]السريع[

يَا أهلَ ذا المنزِلِ هَلْ حِيلةٌ
تُنجِي فمن ظبيكم مُعطِبي
عَقرَبُ صُدغَيهِ فقلبي إذا
همّ توقّى لدغةَ العقربِ
وكلّمــــا لاحَظَنِي طرفُهُ
لاحَظَني عَنْ مُقلةِ الزَبرَبِ

يبيّن هذا النصّ استنجاد الشاعر وشكواه من الضعف والمخاطر المحيطة بهِ، معوّلًا في ذلك على إيراد بعض الكائنات الحيّة

من نحو الظبي، والعقرب- وهذا الأخير يُعدّ من الحيوانات اللافقارية التي تنتمي إلى مطاف صنف العنكبوتيات-[٢٤]، والربرب، في ملمحٍ ينوء إلى الأزمة التي وقعت على الرقعمق فجعلته يستنجد الآخر/الأهل وطلب المساعدة منهم، خوفًا من لدغ العقارب وسمّها الفتاك هذا من جانب، ومن الأخطار الأخرى المحدقة بهِ سواء أكانت شخصية أم مجتمعية من جانب آخر. وبهذا وظّف الشاعر بما تسير لهُ من الكائنات/الحيوانات والحشرات التي ارتبطت صورها مباشرة بما تحمله هذه المتحركات من دلالاتٍ سلبية- تهدد حياة الإنسان- أكثر من كونها إيجابية في واقع الأمر.

المحور الثالث: الصناعي

تقف الدراسة هنا للكشف عمّا جلبتها يد الإنسان من صنائع – الآلات والأشربة- مختلفة غايتها تحقيق الراحة والطمأنينة تارة، وردّ الأخطار ومجابهتها تارة أخرى، وعلى هذا الأساس وقف شاعرنا يستلهم هذه الأشياء الطبيعية الصناعية لغرض تحقيق ما يؤول إليه، وهي على وفق الآتي:

أولًا: الأدوات الصناعية (أدوات الحرب والقتال)

توضح هذه الفقرة ما جاء بهِ الإنسان من صناعة يدوية مختلفة، وخاصّة تلك التي تمثّلت بآلات القتال من نحو السيوف، والرماح، والدروع وغيرها؛ إذ إنَّ العناية بها ليست وليدة اليوم، وإنَّما استأثرت اهتمام العرب منذ القِدم عامّة[٢٥]، والرقعمق خاصّة، فهي في نظرهم موضع فخرهم وعزّتهم واقتدارهم وتميزهم وغير ذلك، وبهذا زادت عنايتهم بالسلاح الحربي بمختلفِ صنوفه وعدّه عاملًا رئيسًا من أسس وجودهم وبقائهم الحيّ[٢٦]، ومصداق ذلك ما جاء في قول الشاعر[٢٧]:]المتقارب[

لقَدْ فُقتُ فيه كما الفارسيُ
في الرمي فاقَ جميعَ الورى
كأنَّ البنادِقَ طَوعٌ لـــهُ
فَهُنّ يُصبنَ لـــهُ ما اشتهى
إذا مـا رَمى طائِرًا حَطّهُ
ولو أنَّـــهُ بمكانِ السُّها

يحاول الرقعمق إثراء لوحته المدحية عن طريق إضفاء آلة السلاح (البنادق) على ممدوحه؛ إذ إنَّ هذا الأخير قد فاق في دقة تصويبه الآخر/الفارسي، وفي الوقت نفسه بالغ الشاعر في جعل الأداة الحربية طوعًا لممدوحه فهي التي تصيب (الطائرة) – في غُنى عن الممدوح- حتى وأنْ كان في مكان (السُّها) الذي لا يمكن أنْ تصل إليه رمية الرامي لبعده عنه، ومن ثمَّ نلمح مشهدًا حربيًا آخر قد اختلج تجربة الشاعر الصناعية، وهذا ما جاء في قوله[٢٨]:]المديد[

وبِكُمْ فـــي كلِّ مَعركةٍ
تَفخرُ الهِنديّةُ القُضُبُ
وبِكُمْ فـــي كلِّ عارفةٍ

تُرفَعُ الأستارُ والحُجُبُ
وإذا سُمرُ القنا اشتجرتْ
فبِكم تُستكشفُ الكربُ

يبيّن الرقعمق عن طريق هذا النصّ ما يتصف بهِ قومه من شجاعة وإقدام في سوح الوغى، معولًا في ذلك على الأدوات الصناعية القتالية من نحو (السُمر، والقنا)، غاية لغرض بيان شدّة بأسهم وضراوتهم وهم يزيحون كلّ ما يعترض طريقهم من عقباتٍ مادية ومعنوية، متكئين في ذلك على تلك الآلات يدوية الصنع.

ثانيًا: الخمرة وأدواتها

من الصناعيات الإنسانية الأكثر شهرة وتفشيًا في أرجاء المجتمع العربي عامّة، وعند الشاعر خاصّة، هي الخمرة بوصفها شرابًا خلابًا تستريح له النفس وتهدئ إزاء ما يتعرض له الإنسان من مواقف واقعية مختلفة؛ إذ إنَّ عن طريق هذا الشراب يزيح كلّ التبعات المبرحة ولوازمها المؤلمة على النفس، وبهذا راح الرقعمق يصف لونها وجمال منظرها وتأثيرها على البدن من نحو قوله[٢٩]:]المجتث[

إنّي ليرتاحُ قَلبي
إلى اصطِحَابِ المَثَاني
بِحَيثْ تَنفي هُمُومي
مُعتّقداتُ الدَّنانِ
مَع شادِنٍ ذي دلالٍ
مُهَفْهفٍ فَتّانِ
فقم رفيقي فاحثث
كؤوسنا غيرَ واني
صفراء ممّا اقتناها
كسرى أنوشروانِ

لا يحتاج المتلقّي إلى عناءٍ كبير من أجل تفكيك قسمات هذا النصّ؛ إذ بدا الرّقعمق يصف ارتياح النفس والبدن معًا, ولاسيّما حين ترتد نحو مكان (المثاني) وما يقدم فيها من الخمرة (الدنان) التي تزيح الكرب والغم عنه، ناظرًا في الوقت نفسه للآخر(الشادن) ومجالسته والتقرّب إليه، وحثه على مداومة سكب الخمرة الصفراء وصفائها الخلاب بمثل ما كان يقتنيها في شرابه (كسرى) ملك الفرس، وفي سياقٍ آخر يكشف الرقعمق عن صناعية الخمرة وتأثيرها الحادّ في تكوين تجربته الشعريّة -الشاذة- ؛ إذ يقول[٣٠]:]البسيط[

وذي دَلال إذا ما شئتَ أنشدني
وإنْ أردتُ غِناءً مِنهُ غنّاني
سَقيتهُ وسَقاني فَضلَ ريقَتِهِ
وجادَ لي طرفُهُ عَفوًا ومَنّاني
ما زال يأخُذُها صَفراءَ صافيةً
حتى توسّدَ يُسراه وخَلّاني
سقيًا لِليلتِنا بالدّيرِ بين ربًا
باتت تجودُ عليها سُحبُ نسيان

يكشف الشاعر في حواره الغزلي مع الآخر/الغلام عن أوصاف الخمرة واشراقتها الصفراء الصافية في إبراز تجربته الجنسية – الشاذة- ابتداءً حين عرض رضوخ الفتى إليه نفسيًا وجسديًا، ولاسيّما إذا طلب الرّقعمق منه أنْ يغني لهُ ما طاب في نفسه، ويسقيه من الخمرة حتى زوال

الليل. وعلى هذا الأساس شكّلت الأدوات الصناعية بمختلف أنواعها أداة ووسيلة مهمّة قد ساعدت الإنسان/الشاعر في درء الأخطار وردّ الأذى إزاء ما يتعرّض لهُ من المواقف والصعاب الواقعية عامّة، فضلًا عن بيان عمّق ارتباطه وتأثره بالخمرة ولوازمها من حيث تأثيرها الحادّة نفسيًا وبدنيًا.

الخاتمة

١- شكّلت الطبيعة الساكنة ولوازمها السماوية عنصرًا تكوينيًا مهمًّا في تشكيل صورة الشاعر الشعريّة؛ إذ إنَّ مجيء النباتات بمختلف أشكالها لم يكن بصورة شعريّة منفردة، وإنَّما رأيناه يتداخل أو يندرج تحت مظان الأغراض الشعريّة المختلفة، وفي الوقت نفسه نلحظ بأنَّ الأجرام السماوية – الأنواء- قد حضرت في كينونة غرض المديح حصرًا، من دون ورودها في لوحاتٍ غرضية أخرى.

٢- وقف الرّقعمق على صورة الحيوان -الركب والدواب- وتوظيفه في كينونة المديح فحسب، من دون مجيئه في غرضٍ آخر، قياسًا بالحيوانات المشهورة – الناقة والفرس- ؛ إذ انخفض منسوب حضورها أو قُل: غُيبت تمامًا ولم تحضر في قريضه الشعريّ. بينما أفصح ذكر الطّير – القماري والديك والعصفور- ما يكتنف تجربة الشاعر الشعريّة التي أظهرت صورة الاتساق المعبر عن الواقع الحياتي آنذاك، وبهذا كان حضور الطّير قد اقتصر على غرض المديح فحسب، بينما غابت أكثر الطيور الأخرى التي لم ترد في ديوانه الشعريّ حصرًا.

٣- اتّخذ الشاعر بما تيسر لهُ من ذكر الكائنات- الحيوانات والحشرات- الحيّة التي ارتبطت صورها بالواقع البيئي من أمورٍ سلبية غير محبذة عند بني البشر في الأعمّ الأغلب.

٤- أسهمت الأدوات الصناعية بمختلف أنواعها وأشكالها عاملًا رئيسًا في إبراز هُويّة الشاعر وموقفه من الحياة هذا من جانب, فضلًا عن رسم ملامح ما آلت إليه تجربته الذاتية من صورٍ يسودها عامل البذاءة والخسّة من جانب آخر.

الهوامش البحث:

١- ينظر: يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: محمد بن إسماعيل الثعالبي(ت ٤٢٩هـ): تحقيق: د. مفيد محمد قميحة: ٣٧٩/١. وسير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي(ت٧٤٨هـ): تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط,: ٧٧/١٧. والوافي بالوفيات: الصفدي(ت٧٦٤هـ): تحقيق: أحمد الأرناؤوط, وتركي مصطفى: ٩٨/٨.

٢- ينظر: المزهر في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ): تحقيق: محمد أحمد جاد وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم: ٤٨٢/١. وديوان أبو الرقعمق: تحقيق: د. محمد حسين عبد الله: ١٣.

٣- ينظر: يتيمة الدهر: ٣٧٩/١- ٣٨٠. وبغية الطلب في تاريخ حلب: ابن العديم(ت٦٦٠هـ), تحقيق: د. سهيل زكار: ١١١٠/٣. ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان (ت ٦٨١هـ): تحقيق: د. إحسان عباس: ١٣٢/١.

٤- ينظر: وفيات الأعيان: ١٣٢/١- ١٣٣. وروضة المحبين ونزهة المشتاقين: ابن قيم الجوزية(ت٧٥١هـ): ١٢٨.

٥- ديوان أبو الرّقعمق: ٩٨-٩٩.

٦- ينظر: حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار: محمد بن إبراهيم المشهور بالوزير(ت١١١٩هـ): تحقيق: محمد العربي الخطابي: ١٣٧.

٧-ديوان أبو الرّقعمق: ١٠٠-١٠١.

٨- ينظر: حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار:١٦٤.

٩- ينظر: لسان العرب: ابن منظور(ت٧١١هـ), تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون: مادة (نوأ): ٤٥٦٧/٦.

١٠- ينظر: الأنواء في مواسم العرب: ابن قتيبة: ١-٧.

١١- ينظر: الأزمنة والأمكنة: المرزوقي: ١٧/١.

١٢-ديوان أبو الرّقعمق: ٧٤.

١٣- المصدر نفسه:٥٧-٥٨.

١٤- ينظر: الطبيعة في الشعر الجاهلي: د. نوري حمودي القيسي: ٩٦. وقراءة ثانية لشعرنا العربي: د. مصطفى ناصف:٩٨, ١١٢.

١٥- ديوان أبو الرّقعمق: ٦٦.

١٦- المصدر نفسه: ٦٤.

١٧- ينظر: الطبيعة في الشعر الجاهلي: ١٧٦. ومشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية: د. حسين جمعة: ٢١٠-٢١٣.

١٨- ديوان أبو الرّقعمق: ٦٤. القماري: نوع من أنواع الحمام البري المشهور بصوته الجميل.

١٩- المصدر نفسه: ٧٥-٧٦.

٢٠- المصدر السابق: ٩٠.

٢١- المصدر نفسه: ٥١.

٢٢- ينظر: الحشرات وعلاقتها بالإنسان: د. حسين إبريك الدمنهوري: ٥٣-٥٤.

٢٣- ديوان أبو الرّقعمق: ٤٧. المعطب: الإنسان الذي لا يملك شيئًا في الحياة. والرَبرَبِ: قطيع من البقر الوحشي, وقيل: من حيوان الظبي.

٢٤- ينظر: معجم الحيوان: أمين المعلوف: ٢٢٠. والموسوعة في علوم الطبيعة: إدوار غالب: ٢/ ١٠٨٦.

٢٥- ينظر: شعر الحرب عند العرب: د. نوري حمودي القيسي: ٢٢, ٢٧.

٢٦- ينظر: وصف السلاح في شعر القرنين الثالث والرابع للهجرة : إنعام شجاع(رسالة): ٨.

٢٧- ديوان أبو الرّقعمق: ٤٢. السُّها: نجم صغير.

٢٨- المصدر نفسه: ٤٧.

٢٩- المصدر السابق: ٩٨-٩٩.

٣٠- المصدر نفسه: ١٠٦-١٠٧.

مصادر البحث:

أولًا: المصادر والمراجع

ابن خلكان (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: د. إحسان عباس، ، دار صادر، بيروت، د.ط، د.ت.

ابن العديم (ت٦٦٠هـ)، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، د.ط، د.ت.

ابن قيم الجوزية (ت٧٥١هـ)، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

إدوار غالب، الموسوعة في علوم الطبيعة، دار المشرق، ط٢، ١٩٨٨م.

أبو عبد الله محمد بن مسلم بن قتيبة الدينوري(ت ٢٧٦ه)، الأنواء في مواسم العرب، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، (د.ط) ، ١٩٨٨م .

أبو علي أحمد بن محمد بن الحسين المرزوقي (ت٤٢١هـ)، الأزمنة والأمكنة، مطبعة حيدر أباد الدكن، (د.ط),(د.ت).

أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير، محمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة ، (د. ط),(د، ت) .

أمين المعلوف، معجم الحيوان، هدية المقتطف السنوية، (د.ط)، ١٩٣٢م.

جلال الدين السيوطي(ت٩١١هـ)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: محمد أحمد جاد وعلي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٣، (د.ت).

حسين إبريك الدمنهوري، الحشرات وعلاقتها بالإنسان، مكتبة الإيمان بالمنصورة، مصر، ط١، ١٩٩٨م.

حسين جمعة، مشهد الحيوان في القصيدة الجاهلية، دار رسلان، دمشق، ط٢، ٢٠١١م.

شمس الدين الذهبي(ت٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

الصفدي(ت٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٠م.

محمد بن إبراهيم المشهور بالوزير(ت١١١٩هـ)، حديقة الأزهار في ماهية العشب والعقار، تحقيق: محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٩٠م.

محمد بن إسماعيل الثعالبي(ت٤٢٩هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تحقيق: د. مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

محمد حسين عبد الله، ديوان أبو الرقعمق، دار الفرات للثقافة والإعلام، بابل- العراق، ط١، ٢٠٢١م.

مصطفى ناصف، قراءة ثانية لشعرنا القديم، دار الاندلس، ط٢، ١٩٨١م.

نوري حمودي القيسي، شعر الحرب عند العرب، منشورات دار الجاحظ للنشر، بغداد، (د. ط)، ١٩٨١م.

نوري حمودي القيسي، الطبيعة في الشعر الجاهلي، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٩٧٠م.

ثانيًا: الرسائل والأطاريح

إنعام شجاع سعيد العنبكي، وصف السلاح في شعر القرنين الثالث والرابع للهجرة، رسالة ماجستير، جامعة بغداد – كلية التربية للبنات، ٢٠٠٢م.